التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنـــكولن

هدية الاحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم

وما حيلة الطب فى نوازع تؤبق الروح ، وهواجس تعمى القلب؟ وإن بدت آثار هذه وتلك فى نواحى البدن عجز الطبيب ، ولا عجب أن يعجز ، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطع الطبيب أن يفعل ، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه

باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكى فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشق مما به فى تلك الأحراج التى درج منها أول ما درج . دعاه سبيد أن ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره ، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده تحولا على تحول ، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة ... !

ولبث فى كنتوكي أياماً ، لقى فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلا ، وصاحبه لا يفتأ يسرى عنه ويتصبح له ، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه ، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التى فعل وكان فيها غير كريم ، بل وكان من الضالين ... بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق فى حاجة إلى من يعينه ، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله !

وانقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح ، وراح يجهد أن يهدى صاحبه حينما وسوست إليه نفسه معانى كتلك التى كانت تجول فى خاطره هو : معانى الحيرة والتردد والشك . فلقد أصبح سبيد يحار فى أمر حبه كما أصبح يتتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه فى ذلك شأن ناصحه . وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده ؛ على أنه وهو فى كنتوكى كتب رسالة فى الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه . خذ لذلك مثلا قوله : « إنى لم أصنع فى الحياة شيئاً يذكّر أى إنسان أنى عشت . ومع هذا فان ما أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومي وجيلى ، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولى من الناس جدوى »

ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى على صاحبه ، وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه وبصور نزعات وجدانه . كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم فى مجالس لهوهم من انقباض وضيق ، وإلى ما تركته الوراثة فى طبعه من شدة التأثر وقوة الانفعال ؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته . وكان عجباً أن ترى مثل ذلك من لنكولن ، فترى فيه العالم النفسانى ، والشاعر الرقيق العاطفة ، وهو الذى علم نفسه بنفسه ... !

وتزوج سبيد بعد ذلك وبقى لنكولن حيث هو ، موقفه اليوم من مارى عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن ؛ فعاد إليه بذلك ما شغلته عنه قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه ! وأصبح فإذا هو ضائق بوساوسه . وزاده تبرماً بحاله وإنكاراً

لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدى زوجه ... لذلك لم يكن عجيباً أن يلتمس الـكينة من جديد عند فتاة ناهد كان قد عرفها قبـل أن يعرف مارى . بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى مارى ، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنهـا . قال فى كتاب من كتبه : « يخيل إلىّ أنه ينبغى أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملازمة لى ، ألا وهى أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك . إن تلك الفكرة ما تزال تريق روحى ؛ ولا معدى لى عن أن ألوم نفسى حتى على مجرد الأمل فى السعادة فى حين أنها على ما هي عليه »

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأتى لها أن يتصلا إن هما أرادا ذلك . وكانت هى من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية ...

ودبر رجل من صحابتهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر . وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبته ربكة المفاجأة . وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل ؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من شيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب فى ذاته ، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته : ذلك أن إبراهام ، وهو الرجل الذى ملك القلوب بدماثته ورقة حاشيته ، قد دخل غير متردد ولا هياب فى مبارزة تدور على السيف ! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن ! فلقد نشر ابراهام فى إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التى أذاعها ، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً ، فأثار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم ؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها ... وكان لمارى فى هذه الردود نصيب . وثارت ثائرة ذلك السياسى وراح فى المدينة يتهدد ويتوعد ؛ وجاء صاحب الصحيفة فنفذه وتهدده بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة . وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له فى غير وناء ولا استخذاء : إنه يأخذ الأمر على عاتقه ، وإنه لذلك فى حل من أن يذيع اسمه . وتم ذلك فكانت المبارزة ... فلقد تحداه ذلك السياسى أن يبارزه ، وشاع أمر ذلك فى الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهم ...

وكان لابراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازله القصير ؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد — والناس يتطلعون — على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً . ثم جلس وفى عينيه أنه يريد أن يلقى إليهم حديثاً وراح يحكى ويستجمع الأمثال ... ! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين ، وانقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية ؛ فلقد ترك فى حياة لنكولن صفحة ظل يندى لها جبينه أبداً ، كما حق لمارى أن تتحدث إلى الناس أن إبراهام ما فعل هذا إلا دفاعاً عنها وحفاظاً أن يناله شىء من غضب ذلك السياسى . وطاب إبراهام بذلك نفساً . وقربت الأيام بينهما حتى بانا من جديد يأخذان الأهبة للزواج . وما هى إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط المقدس وهو يومئذ فى الثالثة والثلاثين

واستنشى ابراهام نسيم الراحة أن أخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه ، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى ، وإن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقِد قرانهما رأوا لنكولن وعلى وجهه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تتقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد !

وأقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة فى حجرتين صغيرتين فى نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربعة دولارات كل أسبوع . وعظم ذلك على مارى فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل ، وهو باق إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... وبسط الله له رزقه بعض البسط ، فانتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يدفعا فى غير عسر أجر إقامتهما فيه

وأخذت مارى فى بيتها الجديد تدبر شؤونه وترعى أمره ، وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور ، حتى لقد كانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت ، ورائدها

فى ذلك النظام كأدق ما يكون النظام . وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد ، وذلك حين كانت ترى من بعلها أن يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها ، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أذواقهم من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام ، أو وهم سامرون فى النوى . وهل كان يستطيع ابن الأحراج أن يتكلف ما لم يجر فى طبعه ؟ ولكن امرأته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحثه على النظام وأنه ذلك خليق به وله فى الناس مكانته ؛ وهى تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن ينير من طبعه . وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها ، فان عجز عن ذلك خرج من المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة ...

وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه ؛ فهو سخى اليد وإن كانت به خصاصة ، وهى لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع . وهو يلقى الناس فى البيت فى هيئة تنم على عدم المبالاة ، فثيابه متبذلة وشعره أشعث ، وعباراته ساذجة ، وهو يستلقى على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفى يده كتاب لا يصرف وجهه عنه ؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقرة فى الحديقة ، ويحمل اللبن فى وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران !

ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبه وتكبره ، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى مالا يراه الناس . وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضى النفس قرير العين ، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله ، ثم يبشره أن قد صار لها غلام ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية ؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية فى حياته ؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح . وأنها كانت ترى بما يشبه اللغانة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب ، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرياسة ! لذلك كانت لزوجها خير معين حين تقدمت خطواته فى ميدان السياسة . وكثيراً ما كانت ترده إلى الطريق السوى إن هو أوشك أن يتنكبها . ويتجلى ذلك فى عدة مواقف سيأتى حديثها بعد حين ...

نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة فى السياسة والمحاماة .

أما فى السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون ، كلما تجدد الانتخاب ، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية . وأما فى المحاماة فقد تركه شريكه ستيوارت إلى وشنطون حيث اتخذ مقعده فى المجلس العام للولايات ؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من مارى بثلاث سنوات ؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان ، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة فى المدينة ، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن . وكانت له فى العمل الرياسة . ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد فى ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرانة والخبرة ؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر ، وإن كان يرى من زميله أنه لا يعدل فى ذلك وإن كان لا يميل كل الميل . ولم يكن ثمت ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف حزب الآخر ...

ولما قضى الأمر بينه وبين لوجان ، اتخذ له زميلاً آخر . وكان هذا الزميل شاباً دونه فى العمر بعشرة أعوام اسمه هرندن . وكان هرندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً ، فتوثقت عرى الصداقة بينهما . وكانت لأبراهام الرياسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء ، كما كان كزميله فى مذهبه السياسى ومن الداعين إلى القضاء على العبيد ...

وعرف إبراهام فى المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله فى المدينة ؛ فهو بسيط فى كل شىء ، يجعل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة ؛ وينظر فى تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله . يرد كل شىء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور فى نفسه ، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهم ... ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند ، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له ؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال : « إنى أستطيع أن أربح قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات السمانة ، ولكنى إن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة ، ولن

أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك . لذلك أحس في الليل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك . على أني أبتك نصيحة لا أسألك عليها أجراً : إذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمائة دولار » ... بذلك وبأمثاله اتخذ أيب الأمين سبيله إلى قلوب الناس ، فما منهم إلا مكبره ومحبه . وكان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم ، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً ؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام ! وهو لا يسألهم أجرا على ذلك ، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم ...

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجتهم ؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هربدن ، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه ! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه : « هذا نصفك » ؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة ، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الإخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، ويرونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة . كان لا يعنى في شيء يظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر ... وكان في عمله كما كان في منزله ، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيتها ؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات .. ولله ما كان أعظم تلك البساطة منه في كل شيء ! وهل ثمت بين التكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق ؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته ...

(يتبع) الخفيف

منار الرشد

كتاب جديد يبحث في المذهب الروحاني

وبه تنظر الروح وترى الله

يباع في مكتبة الحلبي والمكتبة التجارية بالقاهرة

وثمنه ١٥ قرشاً

حلبي يزور باريس

في سنة ١٨٦٧

للدكتور حسين فوزي

تتمة ما نشر في العدد ٢٤٥

وينتقل بنا الخواجا فرنسيس من أشور لمصر ليونان لروما ، فيقول في فلاسفة الإغريق :

فذاك أريسطو وذا إقليدس ذو منطق هذا وذا مهندس
وهو ذا سقراط ذاك الأنفس من كان للآداب دوماً يغرس

ثم يكون من سوء حظ ديوجنيس أن يجيء في الشطرة الخامسة ، فتسلبه القافية الرائية مصباحه ، ولا يبقى له من فلسفته الكابتة إلا أن يكون :

وذا ديوجنيس ذو التعرّي !

ورحالتنا رجل حساس بجمال فن التصوير ، فهو يأمرنا :

أن نمرج نحو مكان الصور حتى نرى أجمل صنع البشر

حيث عينه الفتانة لا تخفي عليها خافية :

فهاك كل بطل مبارز يلوح في أعضائه البوارز
وكل خود ذات طرف غامز وأجفن عن الهوى رواميز
وطلعة تخسف وجه البدر

لاشك أنك تعبت من التجوال — أو من الشعر ! — والخواجا فرنسيس يشعر بذلك تواً ، فهو يلاحقك بشعره الفلسفي إذ يقول :

تبا لنفس حظها يصرعها وكل مايلزها (كذا!) يلذعها
آفتها تضجر يتبعها فأينما سارت أتى يصفعها
وربما يلحقها للقبر

أظن أننا لن ننتهي بسلام من خمسائية المعلم فرنسيس ، وقد تكفي الإشارة إلى أنه ينتقل بك فيها من حديقة «اللوكسمبور» إلى متحف « كلسوني » ومن دار البلدية إلى « بولفار ميخائيل إلى لقا يبوعه الجميل » . ولا ينسى أن يعرج بك على حديقة النبات ومتحف التاريخ الطبيعي حيث يدور بك شعراً في أقسامه من الجيولوجيا ، إلى المعادن ، إلى النبات ، إلى الحيوان . ثم هو